

تزكية النفس

و

معالجة الآفات

إعداد

أبو عادل

عبد الله بن محمد اليوسف

مصدر هذه المادة :







بسم الله الرحمن الرحيم

من كتاب الله عز وجل:

قال الله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾ [الشمس]

من هدي الرسول ﷺ:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قاربوا وسددوا واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**» الحديث. رواه مسلم.

من التراث شعرًا:

قال ابن علان البكري الشافعي:

الموت بحر موجه طافح يغرق ما فيه الماهر السابح

ويحك يا نفس قفي واسمعي مقالة قد قالها ناصح

ما ينفع الإنسان في قبره إلا التقى والعمل الصالح

المقدمة

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على رسوله المصطفى وبعد:

فهذا الكتيب أودعته جملةً من الآثار والفوائد التي تعالج النفس البشرية وتحملها على القيام بالأعمال المفروضة المأمور بها المسلم وكذا بعض النوافل التي يمكن أن يؤديها على مدار الساعة واليوم والشهر والسنة في هذه الحياة ارتباطًا بعدد الأنفاس، ولذا تجنبت الأحكام الفقهية واختلاف الفقهاء، ورتبت الكتيب على ثلاثة أبواب، كل باب به فصلان، كما أشكر كل من كان له دور في ظهور هذا الكتيب بالتوجيه والإرشاد إلى أن ظهر بهذا الشكل، وأسأل الله لنا ولهم الأجر والثواب وأن ينفع به وأن أكون قد وفقت للصواب، إنه السميع المجيب والهادي إلى سواء السبيل.

المؤلف

أبو عادل عبد الله بن محمد اليوسف

الرياض: ١١٤٦٥ – ص ب: ٢٠٥٠٦

البـــاب الأول

الفصل الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

إن الحمد لله، نحمده ونستغفره، ونعوذ به من شـــرور أنفســـنا ومن سيئات أعمالنا، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصـــحبه وسلم. أما بعد:

فإن الهادي البشير ﷺ هو معلمنا وهادينا ومؤدبنا، حيث أدبـــه ربه فأحسن تأديبه حتى خاطبه مثنيًا عليه، فقال تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم: ٤].

لذا حبَّب إليه القلوب، وقرَّب إليه النفوس فمالت إليه الأفئدة، ولما كان من أهم المهمات التي بُعث بها نبي هذه الأُمة هي تزكيـــة النفس وتربيتها وتهذيبها كما قال عز وجل في كتابه الكريم: ﴿**هُـــوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُـــزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ [الجمعة: ٢].

والتزكية في اللغة: هي التطهير. ومنها سميت صـــدقة المـــال بالزكاة؛ لأنه بها يتطهر ويتزكى وذلك بإخراج حق الله وكذا يتطهر المال ويربو وينمو.

كما قال تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا**﴾ [التوبة: ١٠٣]. ولو استقرأنا كلمتي النفس والتزكية بجميع اشتقاقاهما في كتاب الله لوجدنا أن كلمة النفس وردت في ثلاثمائة وثمان وتسعين آية. وكلمة التزكية في تسع وخمسين آية [(١)].

وهذا الكم الهائل دليل على عظم شأن النفس البشرية والاهتمام بتزكيتها وتهذيبها وتطهيرها لكي يتم الفلاح والنجاة. ولذة النفس وفرحتها تكون بترك المعاصي والتوبة منها فعلينا بالمبادرة بذلك قبل أن يأتي يومٌ: ﴿**لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

والنفس: هي التي تفارق الجسد بالموت. ويراد بنفس الشيء: ذاته وعينه. وكذلك قد يراد بلفظ النفس: الدم الذي يكون في الحيوان، كقول الفقهاء: ما له نفس سائلة، وما ليس له نفس سائلة. ومنه يقال: نفست المرأة أي حاضت، ومنه يقال: النفساء. ويراد بالنفس أيضًا صفاتها المذمومة، فيقال: له نفس. ويقال: اترك نفسك.

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

النفس البشرية وصفاها

إن النفس البشرية واحدة كما يقول المفسرون والفقهاء إلا أن كثيرًا من أهل التصوف يقولون: إن للعبد ثلاث أنفس، والحقيقة أنه لا نزاع بين الفريقين، فإنها واحدة باعتبار ذاتها، وثلاث باعتبار صفاتها [1].

قال تعالى: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ**﴾ [الفجر: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿**وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾ [القيامة: ٢].

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**﴾ [يوسف: ٥٣].

إذًا فالنفس واحدة، ولكن لها صفات متعددة فتسمى باعتبار كل صفة كالتالي [2].

أولاً: النفس المطمئنة:

وهي تلك النفس المطمئنة إلى ربها بعبوديته ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه والرضا به والسكون إليه، فيستغني بمحبته عن حب ما سواه، وبذكره عن ذكر ما سواه، وبالشوق إليه وإلى لقائه عن الشوق إلى ما سواه. ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا بذكر الله، كما قال تعالى: ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [الرعد: ٢٨][3].

---

(١) تزكية النفس.

(٢) الروح لابن القيم.

(٣) ابن تيمية (مجموع فتاويه) المجلد ٩.

لذا فإن طمأنينة القلب بسكونه واستقراره، وبزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه، والملل من هذه الحياة وما يترتب على ذلك من أمور.

والطمأنينة التي تصير بها النفس مطمئنة: أن تطمئن في باب معرفة أسمائه وصفاته ونعوت كماله، وهي هنا نوعان:

أ- طمأنينة إلى الإيمان بها وإثباتها.

ب- طمأنينة إلى ما تقتضيه وتوجبه من آثار العبودية.

قال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ [التغابن: ١١].

فمثلاً، الطمأنينة إلى القدر وإثباته والإيمان به: تقتضي الطمأنينة إلى مواضع الأقدار التي لم يؤمر العبد بدفعها، ولا قدرة له على دفعها، فيسلم لها، ويرضى بها، ولا يسخط، ولا يشكو، ولا يضطرب إيمانه، فلا يأسى على ما فاته، ولا يفرح بما آتاه؛ لأن المصيبة فيها مقدرة قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير. ﴿**لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾ [الحديد: ٢٢].

أي أن يعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم، فهذه طمأنينة إلى أحكام الصفات وموجباتها وآثارها، وكذلك سائر الصفات وآثارها ومتعلقاتها؛ كالسمع والبصر والعلم والرضا والغضب والمحبة، فهذه طمأنينة الإيمان.

وأما طمأنينة الإحسان فهي الطمأنينة إلى أمره امتثالاً وإخلاصًا

ونصحًا، أي: أن يطمئن من قلق المعصية وانزعاجها إلى سكون التوبة وحلاوتها وفرحتها، ويسهل عليه ذلك بأن يعلم أن اللذة والحلاوة والفرحة هي في الظفر بالتوبة وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاق الأمرين وباشر قلبه آثارهما. فالتوبة طمأنينة تقابل ما في المعصية من انزعاج وقلق واضطراب. فإذا اطمأنت من الشك إلى اليقين، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الخيانة إلى التوبة النصوح وهي: «أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن»[1]. ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن العجز إلى الكيس، ومن صولة العجب إلى ذلة الإخبات، ومن التيه إلى التواضع، ومن الفتور إلى العمل.

وبذلك فقد باشرت روح الطمأنينة، وأصل ذلك كله ومنشؤه من اليقظة فهي أول مفاتيح الخير.

فالغافل هو بمنزلة النائم بل أسوأ حالاً منه، والعاقل يعلم وعد الله ووعيده، ولا يحجبه الإدراك ويقعده عن ذلك سنة القلب، وهي الغفلة التي رقد فيها وطال، فبيقظته يصحو النائم، ويزجره تنكشف عن العاقل الغفلة؛ استجابة فيها لواعظ الله في قلبه. فبنور اليقظة يرى أنه لو عمل أعمال الجن والإنس من أعمال البر لاحتقرها بالنسبة إلى جنب عظمة الخالق، وما يستحقه بجلال وجهه وعظيم سلطانه.

(١) دليل الفالحين. هذا قول الكلبي، وأما عمر بن الخطاب وأبي بن كعب رضي الله عنهما: التوبة النصوح «أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه» وقال الحسن البصري: «هي أن يكون العبد نادمًا على ما مضى عازمًا على أن لا يعود إليه».

وكذلك بنور اليقظة يرى عيوب نفسه، وما تقدم له من أعمال سيئة، وما كان فيه من غفلة، ويحاسب نفسه، ويراقبها، فيستقبل بقية عمره مستدركًا، قال تعالى في حق الغافل: ﴿**يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ**﴾ [الزمر: ٥٦]. فلا يرى لنفسه حسنة، ولا يراها أهلاً للخير، وبذلك يرى أن من حق المنعم عليه أن يسير إليه ناكس الرأس بين مشاهدته نعمه، ومطالعة جناياته وعيوب نفسه وآفات عمله. وذلك يوجب له أمرين عظيمين:

١- استكثار ما منَّ به الله عليه.

٢- استقلال الطاعة التي تصدر منه كائنة ما كانت.

وحيث إن الله سبحانه وتعالى جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالاً لم يحصل له فهو في قلق واضطراب وانزعاج بسبب فقده كماله الذي جعل له، فمثلاً: كمال العين بالإبصار، وكمال الأُذن بالسمع، وكمال اللسان بالنطق ... إلخ. فإذا عدمت هذه الأعضاء القوى التي بها كمالها حصل الألم والنقص بحسب فواته ذلك.

وجعل كمال القلب ونعيمه وابتهاجه وسروره ولذته في معرفته سبحانه وإرادته ومحبته والإنابة إليه والشوق إليه، فإذا عدم القلب كان أشد عذابًا واضطرابًا من العين التي فقدت الإبصار، وقس على ذلك اللسان والأُذن وباقي الأعضاء ...إلخ.

ولا سبيل إلى الطمأنينة ولو نال من الدنيا وأسبابها ومن العلوم ما نال، إلا بأن يكون الله وحده هو محبوبه وإلهه ومعبوده وغايته

المطلوبة. أي: محبًا ومريدًا للخير والحسنات، مبغضًا وكارهًا للشـــر والسيئات، وأصبح لها خلقًا وعادة وملكة، أما اليقظـــة فهـــي أول منازل النفس المطمئنة «المصدِّقة» بما وعد الله سبحانه وتعالى وأخبر به رسول الله ﷺ.



الفصل الثاني

ثانيًا: النفس اللَّوامة[1]:

هي تلك النفس التي لا تثبت على حال واحدة، فهي كثيرة التردد والتقلب والتلون، وهي من أعظم آيات الله. وهي مخلوق من مخلوقاته تتقلب وتتلون في الساعة الواحدة، فما بالك كيف تكون في اليوم والأسبوع والشهر والعام والعمر كله، نجد ألوانًا كثيرة وحالات متعددة ومتغايرة، فنجدها تذكر وتغفل، وتُقبل وتُعرض، وتلطف وتكشف، وتثيب وتجفو، وتحب وتبغض، وتفرح وتحزن، وترضى وتغضب، وتطيع وتعصى وتتقي وتفجر، إلى أضعافِ أضعاف ذلك من حالاتها وتلونها.

لذلك يقول الحسن البصري رحمه الله: «هي نفس المؤمن، إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائمًا على الفعل: لِمَ فعلت هذا، وما أَردت بهذا؟ ونحو ذلك» ولكن غيره يقول: هي نفس المؤمن توقعه في الذنوب والمعاصي ثم تلومه، وهذا اللوم من الإيمان، بخلاف الشقي، فإن نفسه لا تلومه على ذنب، بل يلومها وتلومه على فواته دون فعله.

وهناك آخرون يقولون: إن هذا اللوم للسعيد والشقي أيضًا. فالأول يلومها على ارتكاب معصية الله وترك طاعته، والثاني لا يلومها إلا على فوات حظها وهواها.

---

(١) الروح لابن القيم.

وطائفة أخرى فسرت ذلك على أن هذا اللوم يكون يوم القيامة، فإن كان مسيئًا لام نفسه على إساءته، محسنًا لام نفسه على التقصير في طاعة الله. وحقيقة هذه الأقوال المذكورة أعلاه كلها اجتهادات المفسرين وهي كلها حق ولا تتنافى فيما بينها، فإن النفس موصوفة بهذا كله، وباعتبارها سميت اللوامة وهي نوعان:

١- **اللوامة الملومة:** وهي تلك النفس الجاهلة الظالمة التي يلومها الله وملائكته.

٢- **لوامة غير ملومة:** وهي التي لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره في طاعة الله، مع بذل جهده (فهذه غير ملومة) وأشرف النفوس من لامت نفسها في طاعة الله، واحتملت لوم اللوام في مرضاته، فلا تأخذها في الله لوم لائم.

أما من رضيت بأعمالها و لم تلم نفسها و لم تحتمل في الله لوم اللوام فهي تلك التي يلومها الله تبارك وتعالى.

ثالثًا: النفس الأمارة [(١)]:

وهي تلك التي يغلب عليها اتباع هواها بفعل الذنوب والمعاصي. وهي مذمومة [(٢)] نظرًا؛ لأنها تأمر بكل سوء، وهذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله وثبتها وأعانها. قال تعالى في كتابه حاكيًا عن امرأة العزيز: ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي**﴾ [يوسف: ٥٣].

(١) فتاوى ابن تيمية، مجلد ٩.

(٢) الروح لابن القيم.

وقال تعالى: ﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا**﴾ [النور: ٢١].

ومن هدي المصطفى نجد أنه يعلم أصحابه خطبة الحاجة: «الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له» إذًا فالشر كامن في النفس وهو يوجب سيئات الأعمال إلا من أعانه الله ووفقه.

والخالق سبحانه امتحن الإنسان بالنفس اللوامة والنفس الأمارة، وأكرمه بالنفس المطمئنة، فالنفس هي نفس واحدة تكون أمارة، ثم لوامة، ثم مطمئنة، وهي غاية كمالها وصلاحها، فأيد المطمئنة بجنود عديدة؛ فجعل الملك قرينها وصاحبها الذي يليها، ويسددها، ويقذف فيها الحق، ويرغبها فيه، ويريها حسن صورته، ويزجرها على الباطل، ويزهدها فيه، ويريها قبح صورته، وأمدها بما علمها من القرآن والأذكار وأعمال البر، وجعل وفود الخيرات وأمداد التوفيق تنساب إليها وتصل إليها من كل ناحية، وكلما تلقتها بالقبول والشكر والحمد لله ورؤية أوليته في ذلك كله؛ ازداد مدها فتقوى على محاربة الأمارة.

وأما النفس الأمارة، فإن الشيطان قرينها وصاحبها الذي يليها، فهو يعدها ويمنيها ويقذف فيها الباطل، ويأمرها بالسوء ويزينه لها، ويطيل الأمل، ويريها الباطل في صورة تقبلها وتستحسنها، ويمدها بأنواع الأمداد الباطلة من الأماني الكاذبة والشهوات المهلكة،

ويستعين عليها بهواها وإرادتها، فمنه يدخل عليها كل مكروه، فما استعان على النفوس بشيء هو أبلغ من هواها وإرادتها. وقد علم ذلك إخوانه شياطين الإنس فلا يستعينون على الصور الممنوعة منهم بشيء أبلغ من هواهم وإرادتهم، فإذا فتحت لهم النفس باب الهوى دخلوا منه فجاسوا خلال الديار فعاثوا وأفسدوا وفتكوا وَسَبَوْا. ومن مداخل [١] الشيطان حيث يأمر بالسوء ونسيان الاستحواذ، والنزعات، وتخويف بالفقر، والاستهواء، والإيحاء بالمجاملة، واليأس، والاستفزاز، وتفكك الأسرة. والنفس الأمارة[٢] هي عكس النفس المطمئنة وفي تضاد، فكلما جاءت النفس المطمئنة بالخير، فإن النفس الأمارة تضاهيها بالشر بما يقابله، فإذا جاءت بالتوحيد والإيمان جاءت بالشرك والشك والنفاق، وتريه حقيقة الجهاد في صورة تقتيل النفس، وتنكح الزوجة، ويصير الأولاد يتامى، ويقسم المال من بعده.

وتريه حقيقة زكاة المال والصدقة في صورة مفارقة المال ونقص وخلو اليد منه واحتياجه إلى الناس ومساواته للفقير، وهكذا مع كل أعمال الخير والبر.

---

(١) البيان في مدخل الشيطان.

(٢) تزكية النفوس.

محاسبة النفس

روى الإمام أحمد [(١)]: «الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله» أخرجه الترمذي.

وأيضًا روى الإمام عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر.

ونجد أن محاسبة النفس نوعان:

النوع الأول: «وهذا يكون قبل العمل».

وهو أن يقف عند أول همه وإرادته ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه. وشرح العلماء ذلك قائلين: إنه إذا تركت النفس لعمل من الأعمال وهم به العبد وقف أولاً ونظر: هل هذا العمل مقدور عليه أو غير مقدور عليه؟ فإن كان الثاني لم يقدم، وإن كان الأول وقف وقفة (ثانية)، ونظر أيضًا، وسأل: هل فعله خير له من تركه، أم تركه خير له من فعله؟ فإن كان الثاني تَرَكَه ولم يقدم عليه، وإن كان الأول وقف وقفة أيضًا (ثالثة) ويسأل نفسه: هل الباعث عليه إرادة وجه الله عز وجل وثوابه، أم إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق؟ فإن كان الثاني لم يقدم وإن كان

(١) تزكية النفوس.

الأول وقف وقفة (رابعة) ونظر أيضًا وسأل ...؟ هل هو معان عليه وله أعوان يساعدونه وينصرونه إذا كان محتاجًا إلى ذلك أم لا؟ فإن لم يكن له أعوان يساعدونه وينصرونه أمسك عنه «مثال ذلك إمساك النبي ﷺ عن الجهاد بمكة حتى صار له أعوان وشوكة وأنصار». وإن وجده معانًا عليه فليقدم عليه فإنه منصور بإذن الله، ولا يفوت النجاح إلا من فوت خصلة من هذه الخصال، وإلا فمع اجتماعها لا يفوته النجاح، فهذه أربعة مقامات يحتاج العبد إلى محاسبة نفسه عليها قبل العمل.

النوع الثاني: «ويكون بعد العمل»:

وهذا النوع ينقسم إلى ثلاثة أقسام كالتالي:

أ- محاسبة النفس على طاعة قصرت فيها و لم تؤدِّها على الوجه الذي ينبغي، وحق الله في طاعة عليها ستة أمور هي:

١- الإخلاص في العمل.

٢- النصيحة لله فيه.

٣- متابعة الرسول ﷺ.

٤- شهود مشهد الإحسان.

٥- شهود منة الله عليه.

٦- شهود تقصيره فيه.

ب- أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرًا له من فعله.

ج- أن يحاسب نفسه على كل عمل مباح: لِمَ فعله؟ هل أراد به وجه الله فيكون رابحًا، أو أراد به الدنيا، فيكون خاسرًا.

قال تعالى: ﴿**لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ**﴾ [الأحزاب: ٨]. ففي هذه الآية يُسْأَل الصادقون عن صدقهم ويحاسبون على ذلك، إذًا فما الظن بالكاذبين؟

فوائد محاسبة النفس

قال تعالى: ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا**﴾ [آل عمران: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ**﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿**وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾ [الكهف: ٤٩].

اقتضت هذه الآيات وما أشبهها خطر الحساب في الآخرة، لذا وجب علينا الاطلاع على عيوبنا، ولا ينجينا من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة [(١)] لأنفسنا وصدق المراقبة، فمن حاسب نفسه في الدنيا خف حسابه يوم القيامة وحَسُنَ منقلبه، ومن أهمل المحاسبة دامت حسراته.

إن العقل يحتاج إلى مشاركة النفس، وأن يوظف عليها الوظائف، ويشرط عليها الشروط، ويرشدها إلى طريق الفلاح. ثم إنه لا يغفل عن مراقبتها، فإنه لا يأمن خيانتها، وأن لا يغفل عن

(١) مختصر منهاج القاصدين.

جوارحه؛ فالعين يحفظها عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه، وهكذا مع باقي الأعضاء، وأن يكون متجهًا إلى الحلال متجنبًا الحرام، وكذلك يعاتبها ويعاقبها عن أي كسل أو خمول ليستوفي منها ما فرط، وأن يجاهد نفسه في العمل للزيادة لا النقصان، وبذلك (١) تعرف حق الله تعالى عليك، وهذا يجعلك ماقتًا لنفسك، مزريًا عليها، ويخلصك من العجب ورؤية العمل، ويفتح لك باب الخضوع والذل والانكسار بين يديه. وأن النجاة لا تحصل لك إلا بعفو الله ومغفرته ورحمته، فإن حقه أن يُطاع ولا يعصى، وأن يُذكَر فلا ينسى، وأن يُشكرَ فلا يكفر جل جلاله وتقدَّست أسماؤه وصفاته.

* * *

(١) تزكية النفوس.

الباب الثاني

الفصل الأول

صفات النفس الخُلقية والمطلوب منها

إن[١] الخُلق الحسن صفة الأنبياء والصديقين، وكثيرًا ما نسمع أن فلانًا من الناس حسن الخَلق والخُلق، أي: حسن الظاهر والباطن، فالمراد بالخَلق (بالفتحة): الصورة الظاهرة، وأما المراد بالخُلق (بالضمة): الصورة الباطنة، وذلك أن الإنسان مركب من جسد ونفس، أي: مادة وروح؛ فالجسد مدرك بالبصر (العين) والنفس مدركة بالبصيرة (القلب)، ولكل واحدة منهما هيئة وصورة إما جميلة وإما قبيحة. والنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدرًا من الجسد المدرك بالبصر، لذلك عظّم الله سبحانه وتعالى أمرها، فقال تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [ص: ٧١، ٧٢].

فنجد في الآية الكريمة أن الخالق سبحانه وتعالى نسب هذا المخلوق إلى أصله الذي هو الطين ونسب الروح إليه سبحانه وتعالى.

إذًا فالخُلق (بالضمة) عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الأفعال جميلة سميت خُلقًا جميلاً وحسنًا، وإن كانت قبيحة سميت

---

(١) مختصر منهاج القاصدين.

خلُقًا سيئًا وقبيحًا، ويجب أن نعلم أن الأخلاق تتغير وتتأثر بالمواعظ والوصايا، لذا فإن دوامها يؤثر كما أن تعاطي أسباب الفضائل يؤثر في النفس ويغير طباعها، وكذلك بمصاحبة أهل الأَخلاق الحسنة وأهل الخير ومجالس الذكر وأهل العلم، وكما في الحديث (١) عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**» ويجب أن لا ننسى أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة في النفس، والميل عن الاعتدال سقم ومرض، فالنفس كالجسد تحتاج إلى علاج والجسد لا يخلق كاملاً وإنما يكمل بالتربية وبالغذاء، وكذا النفس تكتمل بالتزكية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم.

وكما ذكرت أن الاعتدال مطلوب في الأخلاق ولكن يجب أيضًا أن نلفت الأنظار إلى أننا قد نصاب بالتطرف والغلو أو التفريط والتقصير، فمن ذلك نرى أن النفس قد تتصف بصفات الخير أو بصفات الشر، ومع ذلك:

خشوع الإيمان وخُشوع النفاق:

خشوع الإيمان: هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء، فينكسر القلب لله كسرة ممتلئة من الوجل والخجل والحب، فبخشوع القلب تخشع الجوارح وتخمد نيران شهوته ويطمئن القلب بالسكينة ويشرق فيه نور الله، بينما خشوع النفاق نجده على الجوارح تصنعًا وتكلفًا والقلب غير خاشع أي:

---

(١) رواه الترمذي.

ليس حاضرًا، ومشتت الفكر والنظرات.

شرف النفس والتيه:

شرف النفس: هو صيانتها عن الدنايا والرذائل والمطامع التي تقطع الأعناق، وبذلك يتحقق إكرام النفس وإعزازها بخلاف التيه الذي هو عبارة عن خلق متولد بين أمرين: إعجابه بنفسه، وازدرائه بغيره، وبهذا يكون عبدًا دنيئًا وضعيفًا وخسيسًا.

الحمية والجفاء:

الحمية: هي فطام النفس عن رضاع اللؤم كالخبائث والرذائل... إلخ بعكس الجفاء الذي هو: غلظة في النفس، وقساوة في القلب، وكثافة في الطبع، يتولد عنها ما يسمى بالجفاء.

التواضع والمهانة:

التواضع: هو خلق يتولد من العلم بالله سبحانه ومعرفة أسمائه وصفاته وتعظيمه ومحبته وإجلاله ومن معرفة العبد بنفسه وعيوبه، فيتولد من ذلك كله خلق التواضع وهو انكسار القلب لله والذل له، فلا يرى له على أحد فضلاً، ولا يرى له عند أحد حقًا، بل يرى الفضل للناس عليه والحقوق لهم قبله، وهذا خلق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبه ويكرمه ويقربه.

والتواضع المحمود على نوعين:

أ- تواضع العبد عند أمر الله امتثالاً وعند نهيه اجتنابًا، فالنفس تطلب الراحة وتتلكأ في أمره فيبدو منها نوع إباء وهروب من

العبودية، فإذا وضع العبد نفسه لأمر الله ونهيه فقد تواضع للعبودية.

ب- تواضع لعظمة الرب وجلاله وخضوعه لعزته وكبريائه فكلما شمخت نفسه ذكر عظمة الرب تعالى وتفرده بذلك وغضبه الشديد على من نازعه ذلك، فتواضعت إليه نفسه وانكسر لعظمة الله قلبه واطمأن لهيبته.

أما المهانة فهي الدناءة والخسة وبذل النفس وابتذالها في نيل حظوظها وشهواتها فسيطر عليها هواها وسهل مدخل الشيطان عليها.

الحمية لله والحمية للنفس:

فالأولى يثيرها تعظيم الأمر فإذا غضب فإنما يغضب من أجل الله وتعظيم حق الله ولا يهدأ حتى ينتقم لله، بعكس الثانية التي يثيرها تعظيم النفس والغضب لفوت حظوظها ومنافعها الدنيوية.

الجود والإسراف:

الأولى: تكون في الحكيم، يضع العطاء في مواضعه، ومنه السخاء. بينما **الثانية:** فيكون العطاء مرة في موضعه وكثيرًا في غير موضعه وهي صفة مذمومة.

المهابة والكبر:

الأولى: هي امتلاء القلب بعظمة الله ومحبته وظهور ذلك على وجهه فمالت إليه الأفئدة، وقرت به العيون، وأنست به القلوب، فإن تكلم أخذ كلامه بالقلوب والأسماع، وإن سكت علاه الوقار.

بينما **الكبر**: أثر من آثار الإعجاب بالنفس والبغي، وهذا ناتج من قلب امتلأ بالجهل والظلم، حيث لا يرى حقًا لأحد ولا فضلاً، وتكون نظرته للناس بغضًا أو حقدًا ويعاملهم بالاستئثار لا الإيثار والإنصاف، ويقرب من ذلك الصيانة والتكبر، فالأولى تراه يجتنب الذنوب وآثارها، بينما الثانية العلو فهو يقصده.

الشجاعة والجرأة:

الأولى: هي الثبات واستقراره عند المخاوف، وهو خلُق يتولد من الصبر وحسن الظن، فإنه متى ظن الظفر وساعده الصبر ثبت، وهي حرارة القلب وغضبه وقيامه وانتصابه وثباته، فإذا رأته الأعضاء أعانته وخدمته، بينما **الجرأة**: هي إقدام سببه قلة المبالاة وعدم النظر في العاقبة، بل تقدم النفس في غير موضع الإقدام معرضة عن ملاحظة العارض فإما عليه وإما لها.

الحزم والجبن:

الأولى: تدل على القوة والإجماع، أي: جمع همه وإرادته وعقله ووزن بعضها ببعض فأعد لكل منها قرنه ومنه ألقوه في أمر الله، بينما **الجبن** يتولد من سوء الظن وعدم الصبر، فلا يظن الظفر ولا يساعده الصبر. وأصله من سوء الظن ووسوسة النفس بالسوء، ويُقال: إنه ينشأ من الرئة حيث إن الرئة تنتفخ فتزاحم القلب في مكانه وتضيق عليه حتى تزعجه عن مستقره فتصيبه الزلازل والاضطرابات لإزعاج الرئة وتضييقها عليه، ولهذا جاء في حديث[1]

(١) رواه أحمد.

عمرو بن العاص عن النبي ﷺ «**شر ما في المرء جبن خالع وشح هالع**» وسمي بذلك الجبن خالعًا؛ لأنه يخلع القلب عن مكانه ويزيله عنه. وإذا زال القلب عن مكانه ضاع تدبير العقل فظهر الفساد في الجوارح فوضعت الأمور على غير موضعها.

الشح والاقتصاد:

الأولى: فهي خلق ذميم يتولد من سوء الظن – ضعف النفس – ويمده وعد الشيطان حتى يصير هلعًا، وهو شدة الحرص على الشيء، فيتولد عنه المنع؛ لبذله والجزع؛ لفقده، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا**﴾ [المعارج: ١٩-٢١].

أما الثانية: فهي خلق محمود يتولد من خلقين: عدل وحكمة. فبالعدل يعتدل في المنع والبذل، وبالحكمة يضع كل واحد منهما موضعه الذي يليق به، فيتولد من بينهما الاقتصاد، وهو وسط بين طرفين مذمومين، كما قال تعالى: ﴿**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا**﴾ [الإسراء: ٢٩]. ويمكن أن نقول: إن الاقتصاد حالة وسط بين التقصير والتفريط.

الاحتراز وسوء الظن:

الأولى: فإنها تدل على أنه كالمتسلح المتدرع الذي تأهب للقاء عدوه وأعد له عدته، والأخذ بالأسباب التي بها ينجو من المكروه، والمبالغة في اتباع السنة من باب الاحتياط والاستقصاء، بعكس

الوسوسة.

أما سوء الظن فهو امتلاء القلب بالظنون السيئة حتى يطفح ويظهر على لسانه وجوارحه من همز ولمز وعيب وبغض وحسد وحقد ... إلخ، وعدم سلامة قلبه وإقدامه على الشر بعد معرفته لما يعتري قلبه من مرض الشبهة، حتى نرى صاحب ذلك الخلق الذميم يلحق الأذى رغم ابتعاده وعدم المخالطة لغيره، بعكس الأولى: يخالط ولكن محترز دون غفلة وبلاهة وقلة معرفة.

الظن والفراسة:

الأولى: تكون مع ظلمة القلب ونوره، أو طهارته ونجاسته ولهذا أمر الله تعالى باجتناب كثير منه، وأخبر أن بعض الظن إثم.

أما الفراسة: فأثنى الله على أهلها ومدحهم. والفراسة الصادقة للقلب قد تطهر وتصفي وتنزه القلب من الأدناس وتقربه من الله، فهو ينظر بنور الله الذي جعله في قلبه، كما في الحديث قال أبي سعيد: قال رسول الله ﷺ: «**اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله ... الحديث**»[(١)].

وهناك أمثلة كثيرة لا يتسع المجال لذكرها، ولكن يمكن الرجوع إليها في أمهات الكتب، حيث إن شأن الفراسة عظيم وأنها نور يقذفه الله في القلب فيخطر له الشيء، فيكون كما خطر له، وينفذ إلى العين فيرى ما لا يراه غيرها.

---

(١) رواه الترمذي.

النصيحة والغيبة:

الأولى: خلق محمود يقصد منه تحذير المسلم من مبتدع أو فتان أو غاش أو مفسدة وفي أي أمر من أمور حياتك الدينية أو الدنيوية استشارك فيه وقصدك لوجه الله وأشار إليك بالأصلح والأصوب، ولا يعاديك في حالة عدم قبولك لنصيحته وهي نصيحة إحسان يصدر عن رحمة ورقة.

أما الثانية: فهي خلق مذموم إذا وقعت على وجه ذم أخيك وتمزيق عرضه والتفكه بلحمه والغضّ منه، لتضع منزلته من قلوب الناس. فهي الداء العضال ونار الحسنات التي تأكلها كما تأكل النار الحطب.

ملحوظة: يمكن أن تكون الغيبة قربة إلى الله من جملة الحسنات إذا وقعت على وجه النصيحة لله ولرسوله وعباده المسلمين، أما التأنيب فهو عمل في صورة ناصح مشفق مع أن الصحيح هو قصده الإهانة والذم.

العفو والذل:

إن العفو خلق محمود؛ لأنه إسقاط حقك جودًا وكرمًا وإحسانًا مع قدرتك على الانتقام، فتؤثر الترك رغبة في الإحسان ومكارم الأخلاق. بخلاف الذل، فإنه يترك الانتقام عجزًا وخوفًا ومهانة نفس، ويعتبر الذل من أخلاق النفس الأمارة بعكس العفو، فإنه من أخلاق النفس المطمئنة.

الرجاء والتمني:

الأولى: تكون ببذل الجهد واستفراغ الطاقة بالإتيان بأسباب الظفر والفوز، بعكس **التمني:** حديث النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب.

الثقة والغرة:

الأولى: سكون يستند إلى أدلة وأمارات يسكن إليها القلب، فكلما قويت تلك قويت الثقة مبادرًا إلى انتهاز الفرص في وقتها.

بينما الغرة: هي ثقة بمن لا يوثق به وسكون إلى من لا يسكن إليه؛ لأن النفس غرته وشيطانه وهواه وأمله الكاذب وقد يطلب الشيء قبل وقته مستعجلاً ذلك لشدة حرصه.

رقة القلب والجزع:

الأولى هي: الرأفة والرحمة، والله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يرحم عبدًا جعل في قلبه الرحمة والرأفة، وإذا أراد أن يعذبه نزعها منه.

أما الجزع: فهو ضعف في النفس وخوف في القلب، يمده شدة الطمع والحرص، ويتولد من ضعف الإيمان بالقدر.

التوكل والعجز:

الأولى: من عمل القلب وعبوديته اعتمادًا على الله وثقته به.

أما العجز: فهو تعطيل السبب والمسبب حيث يعتمد على الأول ويترك أو يهمل الثاني أو العكس.

المنافسة والحسد:

المنافسة: خلق محمود؛ لأنه يشتمل على النظر إلى الكمال الذي تشاهده من غيرك، فتنافسه حتى تكون مثله أو أكثر، دون أن تتمنى أن يزول عنه ما فيه من خير ونعمة، وهي من شرف النفس وعلو الهمة وكبر القدر.

أما الحسد: فهو خلُق نفس ذميمة وضيعة ساقطة ليس فيها حرص على الخير، فلعجزها ومهانتها تحسد من يكسب الخير والمحامد.

الوجد «الوجدة» والحقد:

أما الأولى: فهي الإحساس بالمؤلم والعلم به وتحرك النفس في رفعة وكمال، وهي تكون مع قوة القلب وصلابته.

أما الحقد: فهو مرض القلب ويتمثل في إضمار الشر وتوقعه كل وقت، وضيق في القلب واستيلاء ظلمة النفس، والحقد بطيء الزوال بعكس الأولى.

* * *

البــــاب الثــــالث

الفصل الأول

تربية النفس

أولاً: بالذكر:

اعلم أنه ليس [(١)] بعد تلاوة القرآن عبادة تؤدَّى باللسان أفضل من ذكر الله سبحانه وتعالى، ورفع الحوائج بالأدعية الخالصة إليــــه تعالى، والدليل على فضل الذكر قوله تعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ [البقرة: ١٥٢]. وقوله تعالى: ﴿**وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وأفضل [(٢)] الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان وذكر القلـــب وحده أفضل؛ لأنه يثمر المعرفة، ويهيج المحبة، ويثير الحياء، ويبعـــث على المخافة، ويدعو إلى المراقبة، ويردع عن التقصير في الطاعـــات والتمادي في المعاصي والسيئات، والذكر أفضل من الدعاء، وهـــو رأس الشكر، والذكر نوعان:

فالنوع الأول هو:

ذكر أسماء الله سبحانه وتعالى والثناء عليه بها، وهذا أيضًا لـــه نوعان:

---

(١) مختصر منهاج القاصدين.

(٢) الوابل الصيب.

أ- **إنشاء الثناء عليه بها** من الذاكر؛ كسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر ... وغيرها.

ب- **الخبر عن الله تبارك وتعالى بأحكام أسمائه وصفاته** مثال قولك: الله عز وجل يسمع أصوات عباده. وهو ثلاثة أنواع: حمد، وثناء، ومجد. وهذه كلها مجتمعة في سورة الفاتحة.

أما النوع الثاني فهو:

ذكر أمره ونهيه، وهذا نوعان:

أ- **ذكره بذلك إخبارًا عنه** بأنه أمر بكذا، ونهى عن كذا، وأحب كذا، وسخط كذا، ورضي كذا.

ب- **ذكره عند أمره** فيبادر إليه، وعند نهيه فيهرب عنه.

وأفضل الذكر أن يكون بالقلب واللسان، وهو من أيسر العبادات ومن أجلها وأفضلها، والأذكار كثيرة لا يتسع المجال لذكرها، فحياة المسلم كلها: كل فعل أو قول يسبقه ذكر، قبل وعند وبعد النوم والأكل والشرب والخروج والدخول ... إلخ. وهذا لمن أراد جلاء القلب وصفاءه، ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلاً وشرفًا وهي أنه يورثه ذكر الله له.

وفي الذكر مائة فائدة سوف أذكر بعضًا منها:

يطرد الشيطان، ويرضي الرحمن، ويوجب محبته، ويزيل الهم والغم بالفرح والسرور والانبساط، نور في الوجه، ويعطيك المهابة والحلاوة والنضرة والإنابة، ويورث المراقبة حتى تدخل في باب

الإحسان، وقوة القلب، يحط الخطايا، ويزيل الوحشة، والفرج وقت الشدة، صيانة اللسان يؤمن العبد من الحسرة، والفرج وقت الشدة، صيانة اللسان، يؤمن العبد من الحسرة، غراس الجنة، ويوجب الأمان من النسيان الذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده، وشدة البلاء والضيق (الضنك)، يداوي قسوة القلب، جلاب للنعم، وموجب للمزيد ودافع للنقم، أن جميع الأعمال إنما شرعت إقامة لذكر الله، أفضل أهل كل عمل أكثرهم فيه ذكرًا لله عز وجل، إدامة الذكر تنوب عن التطوعات وتقوم مقامها، يسهل الصعب، وييسر العسير، ويخفف المشاق، يعطي الذاكرة قوة، وسدًّا بين العبد وجهنم، أن الملائكة تستغفر له، أمان من النفاق، الأماكن التي ذكر الله فيها تشهد له يوم القيامة، كما أنه يجعل الدعاء مستجابًا، دور الجنة تبنى بالذكر، عمال الآخرة في سباق، والذاكرون هم أسبقهم، أن الله يباهي بهم ملائكته، يوجب الصلاة من الله وملائكته والقرب منه سبحانه وتعالى، كما أنه يعدل عتق الرقاب ونفقة الأموال والحمل على الخيل والضرب بالسيف في سبيل الله. والذاكرون والذاكرات هم أولياء الرحمن الذين قال تعالى فيهم: ﴿**لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [يونس: ٦٢].

ثانيًا: بالصلاة:

قال تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى**﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]. وقال تعالى: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ**﴾ [البقرة: ٤٥].

والصلاة [1] عبادة تتضمن أقوالاً وأفعالاً مخصوصة مفتتحة بتكبير الله تعالى، مختتمة بالتسليم، ولها أوقات محدودة تؤدَّى بها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

وتتضمن أيضًا أركانًا وواجبات لا تتم إلا بها، وللصلاة في الإسلام منزلة عظيمة لا تعدلها أي عبادة، فهي عماد الدين وغرة العبادات، وهي أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، فإن صلحت صلح سائر العمل، وإن فسدت فسد سائر العمل، وإن فسدت فسد سائر العمل، وهي آخر وصية وصَّى بها رسول الله ﷺ أمته .. جعل يقول: «**الصلاة .. الصلاة .. وما ملكت أيمانكم**» وهي آخر ما يفقد من الدين.

وبلغ من عناية الإسلام بالصلاة أن أمر بالمحافظة عليها؛ فلا تسقط في الحضر والسفر والأمن والخوف والحرب حتى المرض (كل صلاة منها لها هيئة فلتراجع في مظانها).

والصلاة تشتمل على أقوال «كقراءة القرآن الكريم والذكر والدعاء» وأفعال «كالركوع والسجود». والصلاة [2] تكفر سيئات من أدى حقها وأكمل خشوعها ووقف بين يدي الله تعالى بقلبه وقالبه. فإذا انصرف منها وجد خفة من نفسه، وأحس بأثقال وأحمال قد وضعت عنه فوجد نشاطًا وراحة وروحًا، حتى يتمنى أنه

---

(١) فقه السنة جزء ١.

(٢) الوابل الصيب.

لم يكن خرج منها؛ لأنها قرة عينه ونعيم روحه، وجنة قلبه ومستراحه في الدنيا، فلا يزال كأنه في سجن وضيق حتى يدخل فيها ويستريح بها، لا منها وهذا للمحبون لها، فالمحبون يقولون: نصلي فنستريح بصلاتنا، كما قال إمامنا وقدوتنا ونبينا محمد ﷺ [١]: «**يا بلال أرحنا بالصلاة**». ولم يقل: أرحنا منها، وقال [٢] أيضًا: «**جعلت قرة عيني في الصلاة**» فمن جعل قرة عينه في الصلاة ترى كيف تقر عينه بدونها؟ وكيف يطيق الصبر عنها؟ والمحبون لصلاتهم تصعد ولها نور وبرهان حتى يقبلها الرحمن عز وجل فتقول الصلاة: حفظك الله تعالى كما حفظتني.

مراتب الناس في صلاتهم

الأول: الظالم لنفسه المفرط، وهذا يكون أدى الصلاة ولكن أنقص شيئًا من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها، فهذا يعاب على تقصيره.

الثاني: المحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها ووضوئها، ولكن ضيّع مجاهدة نفسه في دفع الوسوسة والانشغال بغيرها فكرًا فهذا يحاسب على الانشغال بغيرها.

الثالث: المحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها ووضوئها

---

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه النسائي.

مجاهدًا نفسه في دفع الوسوسة والأفكار فهو في صلاة وجهاد وهذا تكفر عن سيئاته.

الرابع: المحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها مكملاً حقوقها كما ينبغي وهذا يثاب على ذلك.

الخامس: المحافظ عليها كما ينبغي دون نقص واضعًا قلبه بين يدي ربه عز وجل يكون في صلاته مشغولاً بربه عز وجل قرير العين به. وهذا يقر به ربه إليه سبحانه، نسأل الله أن يجعلها من هذا النوع .. آمين.

إذًا [1] مما سبق يتضح لنا أن للصلاة أركانًا وواجبات وسننًا ظاهرة، وروحها النية والإخلاص والخشوع وحضور القلب باطنًا.

والمعاني التي تتم بها حياة الصلاة:

المعنى الأولى: النية [2]:

قال تعالى: ﴿**وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ** [3] **وَجْهَهُ**﴾ [الأنعام: ٥٢]. والنية ليست قول القائل: «نويت فعل كذا» بل هو انبعاث القلب يجري مجرى الفتوح من

(١) مختصر منهاج القاصدين.

(٢) تزكية النفوس.

(٣) المقصود بالإرادة هنا: النية.

الله. فالعمل [١] بدون نية عناء، وبدون إخلاص رياء. عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه** ...» الحديث [٢].

والنية الصالحة لا تغير المعاصي عن موضعها، فالطاعة تنقلب معصية بالقصد، والمباح ينقلب معصية أو طاعة بالقصد، أما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد، ودخول النية في المعصية إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها. ففي الصحيحين من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة**» الحديث.

المعنى الثاني: الإخلاص [٣]:

وهو تجريد قصد التقرب لله عز وجل عن جميع الشوائب، بمعنى آخر: إفراد الله عز وجل بالقصد في الطاعات. والإخلاص شرط لقبول العمل الصالح. قال تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ**﴾ [البينة: ٥]. وفي السنة قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «**أخلص دينك يكفك القليل من العمل** ... »**الحديث**[٤].

(١) مختصر منهاج القاصدين.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) تزكية النفوس.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا.

والإخلاص يضاده الإشراك، وقد قيل: إن أشد شيء على النفس هو الإخلاص؛ لأنه ليس لها فيه نصيب. والشوائب المكدرة للإخلاص متفاوتة؛ بعضها جلي وبعضها خفي. وقد قيل: ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من جاهل. وليس للعبد نجاة من الشياطين إلا بالإخلاص، كما قال تعالى: ﴿**إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾ [ص: ٨٣].

وبه فإنه علاج كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة، قال الفضيل: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما [(١)].

المعنى الثالث: الخشوع [(٢)]:

مَنْ أَحْسَنَ آداب الصلاة والتعظيم لله والهيبة له فإن ذلك يولد شيئين، وهما معرفة جلال الله تعالى وعظمته، ومعرفة حقارة النفس، وأنها مستعبدة، فيتولد من المعرفتين الاستكانة والخشوع، من ذلك الرجاء وهو زائد على الخوف، فالخوف [(٣)] هو تألم واحتراق بسبب توقع مكروه مستقبلاً، وهو يكف الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات، والخوف القاصر يدعو إلى الغفلة والجرأة على الذنب والإفراط فيه يدعو إلى اليأس والقنوط، وأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه، ولذلك قال الرسول ﷺ: «**والله إني لأعلمهم بالله**

(١) تزكية النفوس.
(٢) مختصر منهاج القاصدين.
(٣) تزكية النفوس.

وأشدهم له خشية...» الحديث [(١)]، والخوف يحرق الشهوات المحرمة وتتأدب الجوارح ويحصل في القلب الخشوع والذلة والاستكانة ويفارقه الكبر والحقد والحسد، بل يصير مستوعب الهم بخوفه، والنظر في خطر عاقبته، فلا يتضرع لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة، والبخل بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات، والخالق سبحانه وتعالى جمع لأهل الخوف المراتب الأربع التالية:

الأولى: الهدى.

أما الثانية: الرحمة:

قال تعالى: ﴿**هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ**﴾ [الأعراف: ١٥٤].

الثالثة: العلم:

قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر: ٢٨].

الرابعة: الرضوان:

قال تعالى: ﴿**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ**﴾ [البينة: ٨].

وقد أمر الله عز وجل بالخوف، وجعله شرطًا في الإيمان، فقال عز وجل في محكم كتابه: ﴿**وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٧٥].

---

(١) رواه الشيخان.

وقال الرسول ﷺ: «**لا يلج النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع ...**» الحديث [١].

ومن ثمرات[٢] الخوف أنه يقمع الشهوات ويكـــدر اللـــذات، والخوف هو سوط الله تعالى يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل؛ لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى.

والخوف إذا تجاوز حَدَّه (إفراط) خرج إلى اليـــأس والقنـــوط، وهذا مذموم، وما قصر عنه مذموم أيضًا؛ لأنه في غفلـــة وضـــعف إيمان، إذًا الخير في الاعتدال؛ لأن فيه فوائد الخوف، وهي الـــورع والتقوى والمجاهدة والفكر والذكر والتعبد ولسائر الأســـباب الـــتي تؤدي وتوصل إلى الله سبحانه وتعالى: وكل ذلك يستدعي الحيـــاة مع صحة البدن وسلامة العقل.

ومن أقسام الخوف من يخاف سكرات الموت وشدته، وسؤال منكر ونكير، والوقوف بين يدي الله تعالى، ومن المناقشة والعبـــور على الصراط والنار، وأعلاها رتبة الخوف من الحجـــاب عـــن الله تعالى وهو خوف العارفين، أما ما سبق ذلك فهو خوف الزاهـــدين والعابدين، أما الرجاء [٣] فهو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب هاديًا إلى الطاعة زاجرًا عن المعصية، هذا هـــو الرجـــاء الصـــحيح ويسمى وجدًا وذوقًا وإدراكًا، وهذا إذا كان مـــا يلاقيـــك مـــن

(١) رواه الترمذي.
(٢) مختصر منهاج القاصدين.
(٣) تزكية النفوس.

محبوب، وذكرًا إذا كان من مكروه، وإن خطر عليك شيء في المستقبل وغلب على قلبك سمي انتظارًا وتوقعًا.

والرجاء أفضل من الخوف؛ لأنه يستقي في بحر الرحمة، وإذا كان بدون الأخذ بالأسباب فإنه يسمى غرورًا وحمقًا؛ لأنه داع إلى البطالة والانهماك في المعاصي والسيئات. قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢١٨].

ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئًا استلزم رجاؤه الأمور التالية:

أولاً: محبة ما يرجوه.

ثانيًا: خوفه من فواته.

ثالثًا: سعيه في تحصيله.

أما إذا فُقد شيء منها، فإنه يكون من باب الأماني، وشتان بين الرجاء والأماني، وحيث إن كل راج خائف والسائر على الطريق إذا خاف أسرع مخافة الفوات. وفي هذا الحديث نجد البيان عن أبي هريرة رضي الله عنه «**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة** ...» الحديث [1]. والرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود. وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه

---

(١) رواه الترمذي.

قال: «**قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي**» الحديث [1].

المعنى الرابع: حضور القلب:

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**﴾ [الإسراء: ٣٦]. وقال النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**» الحديث [2].

إذًا فالقلوب ثلاثة [3]:

١- القلب الحي:

وهو ذلك القلب السليم الذي استنار بنور الإيمان، وانقشعت عنه حجب الشهوات وأقلعت عنه تلك الظلمات [4]، وخلصت عبوديته لله تعالى إرادة ومحبة وتوكلاً وإنابة وإخباتًا وخشية ورجاء، إن أحبَّ أحب في الله، وإن أبغضَ أبغض في الله، وإن أعطَى أعطى لله، وإن منعَ منع لله.

٢- القلب المريض:

قلب استنار بنور الإيمان وأوقد فيه مصباحه، لكن عليه ظلمة الشهوات وعواطف الأهوية، فللشيطان إقبال وإدبار ومجالات ومطامع ومداخل. وتختلف أحوال هذا الصنف بالقلة والكثرة،

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) الوابل الصيب.
(٤) تزكية النفوس.

فمنهم من أوقات غلبته لعدوه أكثر، ومنهم من أوقات غلبة عدوه له أكثر، ومنهم من هو مذبذب تارة وتارة، إما إلى السلامة أدنى، أو إلى العطب أدنى؛ لأن فيه داعيين: داع يدعوه إلى الله والآخرة، وداع يدعو إلى العاجلة، وهو إنما يجيب أقربهما منه بابًا وأدناهما إليه جوارًا.

٣- القلب الميت:

قلب خالٍ من الإيمان وجميع الخير، قلب مظلم قد أراح الشيطان من إلقاء الوساوس إليه؛ لأنه اتخذه بيتًا، وتحكم فيه بما يريد، وتمكن منه غاية التمكن، وهو قلب الكافر والمنافق، حيث إن الدنيا تسخطه وترضيه، ومخالطة صاحب هذا القلب سقم ومعاشرته سم ومجالسته هلاك.

وهناك [(١)] علامات لمعرفة هذه القلوب، فالقلب الميت تمكن منه الشيطان وانتهى صاحبه، أما القلب الحي السليم، فإنه يرتحل عن الدنيا حتى ينزل بالآخرة؛ بعكس القلب المريض، آثر حب الدنيا واستوطنها حتى صار من أهلها كما قال الرسول ﷺ لعبد الله بن عمر رضي الله عنه: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل** ...» الحديث [(٢)]. إن الفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها، وهي فتن الشهوات والشبهات، فالأولى توجب فساد القصد والإرادة. والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد، فالطاعات

---

(١) تزكية النفوس.

(٢) رواه البخاري.

كلها لازمة لحياة القلب، والمعاصي كلها سموم للقلب وأسباب لهلاكه ومرضه، وهي أربعة:

١- فضول الكلام [١]:

عن أنس رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «**لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه. ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ...**» الحديث [٢]. والمعنى واضح فالحديث اشترط الاستقامة باستقامة القلب، ثم شرط استقامة قلبه حتى يستقيم لسانه.

٢- فضول النظر:

جاء في المسند: قال رسول الله ﷺ: «**النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غض بصره لله أورثه حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه ...**» الحديث [٣]. فإطلاق النظر يسبب فساد القلب، ويلبسه ظلمة ويعميه عن التمييز بين الحق والباطل والسنة والبدعة، ويشغل القلب وينسيه مصالحه، وينغمس في الغفلة، قال تعالى: ﴿**قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**﴾ [النور: ٣٠]. والجزاء من جنس العمل.

٣- فضول الطعام:

قلة الطعام توجب رقة القلب وقوة الفهم وانكسار النفس

(١) تزكية النفوس.
(٢) رواه أحمد.
(٣) رواه أحمد.

وضعف الهوى والغضب، وكثرة الطعام توجب عكس ذلك. عن المقدام بن معد يكرب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة: فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه** ...» الحديث [١].

٤- فضول المخالطة:

هي الداء العضال الجالب لكل شر، وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة، وكم زرعت من عداوة، وكم غرست في القلب من حزازات، وخسران في الدنيا والآخرة حيث إذا ما فقد التمييز دخل الشر عليه.

* * *

(١) رواه أحمد.

الفصل الثاني

٣- الصوم:

كما هو معلوم أن الصوم [١] له خصيصة ليست لغيره من العبادات وهي إضافته إلى الله عز وجل حيث يقول سبحانه: «**الصوم لي وأنا أجزي به**» الحديث [٢]. كفى بهذه الإضافة شرفًا وفضل الصوم لسببين هما:

أ- أنه سر وعمل باطن لا يراه الخلق ولا يدخله رياء.

ب- أنه قهر لعدو الله؛ لأن وسيلة العدو والشهوات، وتقوى بالأكل والشرب، وبالصوم تضيق على الشياطين المسالك والمداخل التي سبق وأن ذكرتها.

والصوم له ثلاث مراتب هي:

المرتبة الأولى: الدائرة الصغرى: وهو صوم العموم:

وهو الصوم الذي ينصح به الأطباء حيث يريح أجهزة الجسم المختلفة كالهضم، ويكون هذا الصوم للأسف بدون احتساب الأجر. بل قد يكون للمحافظة على الصحة العامة وهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة.

المرتبة الثانية: الدائرة الوسطى: وهو صوم الخصوص:

---

(١) مختصر منهاج القاصدين.

(٢) الحديث القدسي، انظر: صحيح الجامع الصغير.

وهنا تكون الدائرة أوسع في تهذيب النفس وتعويدها على الخير والنظام والطاعة والصبر والإخلاص. وهو كف النظر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام وعن المحرمات أو ما لا يفيد.

المرتبة الثالثة: الدائرة الكبرى: وهو صوم خصوص الخصوص:

وهنا تتسع الدائرة لتشمل ما سبق بالإضافة إلى الآداب وسائر الأحكام والفضائل في المساواة والمواساة والإحساس بإخوانه، وهو صوم القلب عن الخواطر الدنيئة والأفكار المبعدة عن الله تعالى وكفه عما سوى الله تعالى بالكلية، وفي الحديث [١] أن النبي ﷺ قال: «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه** ...» الحديث.

ومن سنن الصوم: يستحب الجود في رمضان وفعل المعروف وكثرة الصدقة، ودراسة القرآن وزيادة الاجتهاد فيه لا سيما في العشر الأواخر، عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن النبي ﷺ كان إذا دخل العشر الأواخر أحيا الليل، وأيقظ أهله وشد المئزر ... الحديث [٢].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «**إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد**» الحديث [٣].

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال لما حضر رمضان: «**قد جاءكم**

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) رواه ابن ماجه.

شهر مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم ...» الحديث [(١)]. هذا الصوم المفروض.

ولا بد أن نشير هنا إلى النوافل؛ حيث رحمة الله واسعة، وأبوابه مفتوحة ليل نهار، لا يكل ولا يمل، فالرسول ﷺ رغب في صيام أيام غير رمضان وبين فضلها وهذه الأيام هي:

١- صيام ستة أيام من شوال لقوله ﷺ: «**من صام رمضان ثم أتبعه ستًا من شوال فكأنما صام الدهر ...**» الحديث [(٢)].

٢- صوم عشر من ذي الحجة ويوم عرفة لغير الحجاج قال ﷺ: «**صوم يوم عرفة يكفر سنتين ...**» الحديث [(٣)].

المقصود بالعشر من شهر ذي الحجة هي الأول «من اليوم الأول إلى اليوم التاسع» حيث قال ﷺ: «**ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام**» قالوا: يا رسول الله ولا الجهاد؟ قال: «**ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بماله ونفسه ثم لم يرجع من ذلك في شيء**» الحديث رواه البخاري.

٣- صيام يوم عاشوراء «اليوم العاشر من شهر المحرم» هذا يكفر سنة ماضية كما في الحديث [(٤)].

---

(١) رواه أحمد والنسائي.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه مسلم.

٤- صيام أكثر شعبان «كان الرسول ﷺ يصوم أكثر شعبان...» الحديث[١].

٥- صوم يومي الاثنين والخميس، قال ﷺ: «**تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم**» الحديث[٢]. وسئل عن يوم الاثنين فقال: «**ذلك يوم ولدت فيه وأنزل عليَّ فيه الوحي**» الحديث[٣].

وصيام داود عليه السلام: صيام يوم وإفطار يوم.

٤- الصدقة

دعا [٤] الإسلام إلى البذل وحض عليه في أسلوب يستهوي الأفئدة ويبعث في النفس الأريحية ويثير معاني الخير والبر والإحسان، وكما سبق ذكرت في فضل حسن الخلق في الحث على الجود والمنافسة وذم الخلق السيئ كالشح والإسراف ... إلخ.

وليست الصدقة قاصرة على نوع معين من أعمال البر، بل إن القاعدة العامة تقول: إن كل معروف صدقة. وهذا بعض ما جاء في ذلك:

أنواعها ومميزاتها:

١- قال رسول الله ﷺ: «على كل مسلم صدقة»، فقالوا: يا

(١) متفق عليه.
(٢) رواه النسائي.
(٣) رواه مسلم.
(٤) فقه السنة.

نبي الله فمن لم يجد؟ قال: «**يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق**» قالوا: فمن لم يجد؟ قال: «**يعين ذا الحاجة الملهوف**» قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «**فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر، فإنها صدقة**» ... الحديث.

المعنى هنا واضح وجلي: أي يعين ذا الحاجة المستغيث، سواء كان مظلومًا أو عاجزًا، ويعمل المعروف ويكف عن الشر هو له صدقة.

٢- الصدقة (١) **ليست مقصورة على المال،** فقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**على كل نفس في كل يوم طلعت فيه الشمس صدقة منه على نفسه**». قلت: يا رسول الله من أين أتصدق وليس لنا أموال؟ قال: «**إن من أبواب الصدقة التكبير، وسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، وأستغفر الله، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتعزل الشوك عن طريق الناس والعظم والحجر، وتهدي العمى، وتسمع الأصم والأبكم حتى يفقه المستدل على حاجة له قد علمت مكانها، وتسعى بشدة ساقيك إلى اللهفان المستغيث، وترفع بشدة ذراعيك مع الضعيف، كل ذلك من أبواب الصدقة منك على نفسك، ولك في جماع زوجتك أجر** ...» الحديث (٢).

---

(١) الصدقة تكمل الزكاة كالنوافل والسنن للصلاة، أي من أراد الزيادة عن أركان الإسلام الخمسة فإن له مجال واسع (من الركن الثاني إلى الخامس).

(٢) رواه أحمد واللفظ له.

نجد في هذا الحديث العظيم قمة التكافل الاجتماعي والترابط بين المسلمين.

٣- كذلك ليست مقصورة على شيء معين، ونجد في هذا الحديث أيضًا كيف تقابل أخاك المسلم بوجه حسن وأن لك أجرًا في ذلك حيث تغرس المودة والألفة. قال رسول الله ﷺ: «**من استطاع منكم أن يتقي النار فليتصدق ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة** ...» الحديث [١].

وقال الرسول ﷺ: «**كل معروف صدقة. ومن المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق، وأن تفرغ من دلوك في إنائه** ... » الحديث [٢].

وقال ﷺ: «**لا يغرس مسلم غرسًا ولا يزرع زرعًا فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيء إلا كانت له صدقة** ...» الحديث [٣].

المعنى: أن الصدقة ليست مقصورة للإنسان بل قد تكون الصدقة على الحيوان.

وقال رسول الله ﷺ: «**أفضل الصدقة: الصدقة على ذي الرحم الكاشح**...» الحديث [٤].

الكاشح: أي الذي يظهر العداوة، وبها تنطفئ نار العداوة،

(١) رواه أحمد ومسلم.
(٢) رواه أحمد والترمذي.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه الطبراني.

وتنقلب إلى العكس، تسامح ومودة.

خصائص الصدقة:

ومما تمتاز به الصدقة أنها من الأعمال الصالحة حتى ولو بعد الموت، قال رسول الله ﷺ: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**» الحديث [1].

إخفاؤها أفضل؛ لأنها تبطل بالمن والأذى والرياء، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ**﴾ [البقرة: ٢٦٤].

لا يقبل الله الصدقة إذا كانت من حرام.

يجوز للمرأة أن تتصدق من بيت زوجها إذا علمت رضاه، ويحرم العكس.

جواز الصدقة على الذمي والأسير والحربي والحيوان والقريب، كما سبق ذكره.

للصدقة تأثير عجيب في دفع البلاء وغيره من الأذى، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الصدقة تطفئ غضب الرب وتدفع ميتة السوء** ...» الحديث [2].

---

(١) رواه أحمد ومسلم.

(٢) رواه الترمذي.

وبالصدقة [١] يذهبُ الله الكبر والفخر، كلما تصدق المتصدق بصدقة انشرح لها قلبه وانفسح بها صدره، فهي بمنزلة الجبة التي عليه فكلما تصدق اتسعت وانفسحت وانشرح صدره وقوي فرحه وعظم سروره، ولو لم يكن في الصدقة إلا هذه الفائدة وحدها لكان حريًا بالعبد أن يستكثر منها ويبادر إليها. والأحاديث في فضل الصدقة كثيرة.

روى [٢] عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ذكر لي أن الأعمال تتباهى فتقول الصدقة: أنا أفضلكم.

الصدقة تفدي العبد من العذاب وتفكه منه، ولهذا قال الرسول ﷺ: «**يا معشر النساء تصدقن ولو من حليكن، فإني رأيتكن أكثر أهل النار** ...» الحديث [٣].

قال رسول الله ﷺ: «**صنائع المعروف تقي مصارع السوء، والصدقة تطفئ غضب الرب**» الحديث [٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال** ...» الحديث [٥] – أي الصدقة تزيد في المال ويكون صاحبها من الفالحين، كما في الآية، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر: ٩].

(١) الوابل الصيب.
(٢) رواه أحمد.
(٣) رواه البخاري ومسلم.
(٤) رواه الطبراني في الأوسط.
(٥) رواه مسلم.

معالجة الآفات النفسية والخلقية

بما تم ذكره يتبين لنا الآثار الإيجابية والعلاج. قال [(١)] ابن عباس رضي الله عنهما: إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب وقوةً في البدن، وسعة في الرزق، ومحبةً في قلوب الخلق. وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الـــرزق، وبغضًا في قلوب الخلق.

وقال [(٢)] عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما عمل رجلٌ عمـــلاً إلا ألبسه الله تعالى رداءه، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

ولعله [(٣)] قدر الإنسان أن يعاني نفسيًا أو عقليًا في وقت ما من عمره من بعض الخوف والقلق، وأحيانًا يفقد الإنسان عقله تمامًـــا وما من أحد إلا أصابه القلق والتوتر في وقت ما بسبب أو بـــدون سبب «كالتفكير في بعض الأمور» وهذا ما بينته إحصائيات منظمة الصحة العالمية، وتؤكد أن ٤٠% من المرضـــى المتـــرددين علـــى تخصصات الطب المختلفة لا يعانون من أي مرض عضوي، بل هم في حاجة إلى رعاية نفسية.

فالقلق والتوتر أصبح سمة أساسية للحياة الحديثة وكلما ازدادت المدنية ازدادت متطلبات الحياة تعقيدًا، وازدادت أســـباب القلـــق والتوتر، حيث إننا نعيش في عصر طغت فيه المادة على كل شـــيء

(١) الوابل الصيب.
(٢) الوابل الصيب.
(٣) مجلة التوحيد عدد ١٤١٢/٦هـــ.

وأصبحت المنافسة رهيبة تصل أحيانًا إلى الصراع الدموي وتغيرت قيم كثيرة تتنافى أو تتعارض مع طبيعة الإنسان الأصلية، وأصبح الإنسان في هذا العصر يلهث دائمًا؛ لتحقيق تطلعاته التي لا تنتهي فيزداد قلقه وتوتره، ومن الغريب أن إنسان القرن العشرين صار أكثر شقاء وبؤسًا من إنسان القرون السابقة برغم انتصاراته ومكاسبه بفضل العلوم والاختراعات التي ذللت العقبات وزادت من الإمكانيات واختصرت الوقت والجهد، وبرغم هذا فإن الأمراض النفسية في المجتمعات والأفراد لم تترك عضوًا من أعضاء جسم الإنسان إلا هاجمته وأصابته بالمرض، فضغط الدم، وقرحة المعدة، وتصلب الشرايين، وآلام المفاصل، واضطراب المعدة والأمعاء من إسهال وإمساك، وسقوط الشعر، وفقدان القدرة الجنسية عند الرجل، والبرود الجنسي عند المرأة. وهناك العشرات من الأمراض العضوية والتي سببها الحياة المتوترة التي تضغط على الجهاز العصبي وبدوره يزيد من الهرمونات والعصارات والأنزيمات؛ ولذا يمكن القول دون مغالاة إن السعيد حقًا هو الذي يتمتع بالصحة النفسية التي تحقق له طمأنينة النفس، فلا مال أو منصب أو جاه أو جمال يمكن أن يحقق السعادة.

كما قال الإمام الشافعي في قصيدة طويلة منها:

ولست أرى السعادة جمع مالٍ ولكنَّ التقي هو السعيد

وهذا لا يتم إلا بالإسلام؛ لأنه الدين الحق الذي أنزله العليم الخبير بمكونات وأسرار الإنسان النفسية، والإسلام لم يهتم بتحديد وتوفير الحاجات المادية المناسبة لصحة الإنسان العضوية، بل اهتم

بوضع الأسس الكفيلة بتحقيق النفس المطمئنة الآمنة الراضية التي لا تعاني من التوتر أو الخوف أو القلق. وقد تطرقت في هذا المبحث إلى بعض منها في فصل صفات النفس وعلاجها (بالاعتدال) وفضل تربية النفس «بالذكر والصلاة والصوم والصدقة» وفق المبادئ والأهداف الإسلامية حسب الكتاب والسنة، وبذلك يتحقق للمسلم الأمن والطمأنينة، وهو ما يسمى بعصرنا الحاضر (الصحة النفسية) التي غابت عن الكثير من أهل الغرب ونظريات علمائه التي ترقى إلى درجة النظرية العلمية، بل محاولات لرفض الأُسس والمسلمات التي يقوم عليها التحليل النفسي، وبالتالي فشلها في الوصول إلى فهم الإنسان وطبيعته التي لم تحقق له السعادة (تحسين الصحة النفسية) التي هي غاية كل نفس.

وفي ديننا الإسلامي فإنه يحرم قتل النفس (الانتحار) أو تعاطي المخدرات أو الذهاب للسحرة والمشعوذين من أجل تهدئة الأعصاب وعلاج التوتر والقلق، كما نرى في كثير من مجتمعات غربية وشرقية، حيث لو استعرضنا عدد جرائم الانتحار والضياع وتعاطي المخدرات وانتشار الشعوذة لطال بنا المقال، ولكن يكفي بنا الإشارة لبعض منها فقط، وكل هذا بسبب الابتعاد عن الدين والاهتمام بالجسد فقط، وكما يقول علماء النفس: لا خير في مجتمع صحيح البنية عليل النفس. وفي الدين الإسلامي العظيم السعادة والأمان وحلول لكل أمراض العصر المعروفة والحاضرة والمستقبلة.

والمثل يقول: «الوقاية خير من العلاج».

وهذه بعض المختارات بتصرف من كتاب أرقام مخيفة:

وهي عبارة عن أرقام وحقائق عن بعض المجتمعات المدنية والتي سيطر عليها الجانب المادي، حيث نجد العديد من الإفرازات الشاذة والحالات الاجتماعية الغريبة في ظل غياب الجانب الروحي في الحضارة الغربية (شرقًا وغربًا)؛ لأن الحضارة الغربية هي السائدة سلوكًا ونظامًا في معظم دول العالم المختلفة، وهذه شملت جميع فئات المجتمع وطبقاته حيث نجد أطفال المدارس والمراهقين ونزلاء السجون وعمال المصانع والحوامل والمسنين والمشردين ورجال الأعمال والمثقفين والرياضيين ... إلخ، حيث لجأ الكثير للخروج من حالته إلى العقاقير المهدئة والمنبهة والمخدرة ... إلخ، إما بدافع ذاتي أو علاجًا في العيادات النفسية لروادها، وسوف أحاول أن أضع القارئ الكريم أمام هذه الأرقام، وما تحمله تلك الحقائق من آثار واهتمام ودلالات مملوءة بالخوف والترقب، وأحيانًا تعطينا معلومات خصبة نحن في شوق للاستزادة منها لتعطينا صورة واضحة المعالم لما يحويه عالمنا من أحداث ووقائع، وتبين لنا ما ننعم به نحن المسلمون، وما يسود مجتمعنا من أمن وقيم وتشريع وآداب وحقوق وسلوك، ينعكس على معاملاتنا في هذه الحياة الصعبة بفضل ارتباطنا بخالقنا والسير وفق المنهج الرباني، حيث إنه من لدن حكيم عليم، تحرم وتمنع هذه التصرفات وتنبذها جملة وتفصيلاً بدافع ذاتي (تقوى وتعبد) وتجعل من المسلم عونًا لأخيه المسلم في تحقيق التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع. وبهذه المناسبة وحسب آخر إحصائية، والعدد إن شاء الله في زيادة، نجد أنه في وطننا العربي

(٣٦) ألف جمعية خيرية أهلية تعمل في مجال الرعاية الاجتماعية والثقافية الإسلامية في حياتنا الاجتماعية بالإضافة إلى المؤسسات الحكومية التربوية المختلفة.

والإحصائيات [1] الشاذة في المجتمعات الغربية كالتالي:

أولاً: المخدرات:

١- بلغ عدد المدمنين في أمريكا قبل عام ١٩٨٥ من جملة عدد السكان ٢٣ مليون حسب تصريح مدير مكتب السياسة القومية الخاصة بالمخدرات، وانخفض العدد في عام ١٩٨٥ إلى (١٣) مليون بسبب انتشار مراكز العلاج، حيث طالب الرئيس السابق بتخصيص ١٧٠٠٠ مليون دولار لعلاج المدمنين (خسائر اقتصادية كبيرة للبلد في ضياع الأموال والعلاج).

٢- تعتبر أسعار الكوكايين في البرازيل في متناول الجميع، حيث يقوم الطلبة ببيعه بالإضافة على عقاقير الهلوسة في صالات الطعام في المدارس، ويقوم أطفال في سن الخامسة بتوزيع المخدرات لحساب تجار المخدرات (عصابات) حيث تمتلك تلك العصابات من الأسلحة والذخيرة ما يفوق تسلح الشرطة.

ثانيًا: أطفال العمل:

١- يعمل حوالي ٨ مليون طفل في البرازيل أي ١١.٦% من القوى العاملة في البلاد، وهؤلاء الأطفال يستغلون في ظروف صعبة

---

(١) أرقام مخيفة – طبعة (أولى)/١٤١٦هـ.

جدًا، وليس الأمر مقتصرًا على البرازيل، فهناك الهند وتايلاند والدول الغنية كأمريكا وفي أمريكا الجنوبية وغيرها.

٢- أطفال الظل: بلغ الأطفال الذين يعملون في المناجم والحقول والورش ٢٠٠ مليون حسب ما ذكرته منظمة العمل الدولية في كتاب المنظمة (أطفال الظل).

ثالثًا: الانتحار والقتل:

١- الإحصائيات الرسمية في الصين ذكرت أن ١٤٠ ألف صغير ينتحرون سنويًا رغم توفر وسائل الراحة والترفيه والتنقل، بل وصل الأمر في بعض البلاد أن تباع فيها كتب وبصفة رسمية في المكتبات: كيف تنتحر بطريقة مريحة.

٢- العنف المعتمد: من سنة ١٩٨٤ إلى سنة ١٩٨٥ يفيد تقرير منظمة الصحة العالمية أن حوالي ٣.٥ مليون يلقون مصرعهم كل عام في شتى أنحاء العالم بسبب أعمال العنف المعتمد والاغتصاب والأمراء وسوء معاملة الأطفال من الأمهات وشمل أيضًا:

٣- أ/ شمل التقرير أيضًا حوادث المرور (١.٧٥٠.٠٠٠) مليون وسبعمائة ألف.

ب/ شمل التقرير أيضًا حالات الانتحار (٧٥٠.٠٠٠) سبعمائة وخمسون ألف (بدافع ذاتي).

ج- شمل التقرير أيضًا جريمة القتل (٢٧٥٠٠٠) مائتان وخمسة

وسبعون ألف (بدافع الغير).

رابعًا: تصرفات بربرية:

في أحد ضواحي نيويورك لفت انتباه الشرطة سائق سيارة لم تحمل سيارته لوحة، وكذلك بعض التصرفات الغير مرغوبة، فطاردته وعند القبض عليه لاحظوا عليه رائحة كريهة تنبعث من سيارته وعند التفتيش وجدوا جثة امرأة متحللة، وعند التحقيق مع اعترف بقتل (١٧) امرأة.

خامسًا: السرقات:

حطمت الصين شبكة تمكنت من سرقة أكثر من مليار يوان أي ١٧٥ مليون دولار، متورط فيها صاحب شركة الإلكترونيات ومتورط معه ١٢٠ مسؤول حكومي.

سادسًا: الطلاق:

تفشى الطلاق في بريطانيا قياسًا بالدول الأوربية ففي الفترة من ١٩٩٠ إلى ١٩٩٢ سجلت السلطات المدنية ٣٩٠ ألف زواج فشل منها ١٧٩ ألف (طلاق) وهذه تشمل ٤٦%.

أما في فرنسا فإن نسبة حالة الطلاق ١ إلى ٢ تقريبًا (أي كل حالتين زواج تفشل منهما واحدة).

ملحوظة: الدين المسيحي لا يقر الطلاق أصلاً، وهذا سبب قوي من أسباب الفساد الأخلاقي.

سابعًا: خدش الحياء:

رفع زوجان قضية للمحكمة العليا في باريس تعويض على مصور قام بتصويريهما وهما يقبلان بعضهما بالقرب من مبنى المجلس البلدي في باريس.

ثامنًا: تقليعات:

منح القضاء الأمريكي تعويضًا بقيمة (١٠١) ألف دولار لأرملة؛ لأن زوجها دفن بدون قبعته الكابوي المحملة من قبل شركة الموتى.

والقصص من الكلاب والقطط وغيرها من الحيوانات حَدِّثْ ولا حرج؛ حيث قد تؤول تركة بالملايين لها.

تاسعًا: الرهانات:

أنفق الفرنسيون عام ١٩٩٢ مبلغ ٦٠ مليار فرنك في الرهان على سباقات الخيول وشراء بطاقات اليانصيب.

عاشرًا: معهد النوم (لمعالجة الأرق):

وقع الرئيس الأمريكي الحالي على مشروع قانون يأمر بإنشاء معهد للدراسات الخاصة بالنوم بسبب ما تكبدته الشركات والمؤسسات من خسائر بلغت ١٦ مليار دولار (تشمل الإنتاجية المفقودة) وأوقات التعطل عن العمل بسبب اضطرابات النوم لدى العاملين وما تسببه تلك الاضطرابات من آثار اقتصادية وآثار صحية ناتجة عن اضطرابات النوم.

حادي عشر: الصداع والتوتر:

منظمة الصحة العالمية أفادت أن داء النقطة (الصداع) يصيب ٥٠ مليون شخص في العالم بسبب الاضطرابات العصبية. بلغ عدد الأطفال الذين يعانون من التوتر والأمراض العصبية النفسية في أمريكا (١٢ مليونًا). حتى الأطفال لم يسلموا من هذه الأمراض.

ثاني عشر: إباحة الفوضى والجنس:

احتج العالم الغير إسلامي على التعدد الشرعي للزوجات في الإسلام واعتبروا أمر الإسلام للمرأة لها بأن تقر في بيتها إهانة لها وعدم اعتراف بدورها، ثم تركوها تخرج متى شاءت وتلبس ما شاءت وتتعرى وتلقي خلفها بالعفة والستر باسم الحرية الشخصية مرة، وباسم التقدم والتحضر مرة، وأسماء يطول عددها وذكرها، حتى جنى وحصد هذا العالم المتحضر ما زرع لتلك الفوضى، تتمثل في قنبلة لا تُرى ولا تُمْسك، ولكن انفجارها يصيب مجتمعًا بأكمله، شمل الرضيع والطفل والشاب، وأقعده عن العمل والإنتاج، وأدى إلى هدم طاقة الأمل، وعدة المستقبل وهم الشباب، وحولهم إلى مجموعات من المرضى ومعزولة شاحبة أبصارهم ينتظرون الموت المحقق، إنها قنبلة الإيدز، ذلك التحدي من الخالق سبحانه وتعالى لكل الذين سولت لهم أنفسهم أن يخترقوا قوانينه وتعاليمه السمحة، حيث ينالون عقابهم في الدنيا بسبب تمردهم على التعدد والعفة والوقار للمرأة.

وننهي هذه المعالجة بهاتين الآيتين الكريمتين: قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

أي بهذا المنهج يرتبط بخالقه وتستقيم الأمور ويسعد الإنسان ويتخلص من الشقاء بإتباع الرحمة المهداة للعالمين، وصدق الله العظيم القائل في كتابه الكريم واصفًا نبيه ورسوله محمدًا ﷺ: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾** [الأنبياء: ١٠٧].

* * *

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات:

إن التغيرات التي طرأت على أوضاع المجتمعات مثل النزوح إلى المدن بالأعداد الكبيرة؛ طلبًا للعيش، والتوسع الاستهلاكي، والتركز السكاني، والثقافات المختلفة، والتناقض بين القديم والجديد، وقصر المسافات بين أجزاء العالم بفضل العلوم؛ كالطيران والمذياع والتلفاز والهاتف ... إلخ. كل هذه أثرت في تقصير الوقت والجهد وزاد التعقيد، وبالتالي زادت من معاناة الإنسان أي على حساب الصحة وخاصة الصحة النفسية نتيجة لهذه التغيرات، وتفاقمت المشاكل سلبًا وإيجابًا، وتؤكد ذلك تقارير منظمة الصحة العالمية حيث تقول: إن (١٠-١٥%) من سكان أي دولة من العالم يعانون من اضطرابات نفسية متفاوتة (المجلة عدد ٦٣٤) وبالتالي تزايدت العيادات النفسية. وما أردت بهذا أن اجعل القارئ الكريم في حالة يأس، لا بل أؤكد أنه لا حل إلا بالإسلام من شرور الدنيا وأصحاب الشر.

وأخيرًا أقول: إن هذه محاولة لا تخلو من خطأ أو ضعف في بعض النقاط والاستدراك حقيقة في أي عمل بشري كائن ولكن أستبيحكم العذر والسماح على كل ملاحظة ورحم الله امرأً عرف قدر نفسه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ...

إنه نعم المولى ونعم النصير.

المراجع

بعد الكتاب الكريم والسنة المطهرة، كالتالي وحسب الأبجدية:

١- أرقام مخيفة – إعداد دار طويق للنشر والتوزيع طبعة أولى ١٤١٦هـ.

٢- البيان في مداخل الشيطان.

عبد الحميد البلالي – مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة السادسة ١٤٠٦هـ.

٣- تزكية النفوس.

جمع وترتيب أحمد فريد – تحقيق ماجد أبي الليل – دار نافع للطباعة والنشر – القاهرة – الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ.

٤- دليل الفالحين الجزء الأول.

للنووي والصديقي – تحقيق محمود حسن ربيع – دار الفكر – بيروت.

٥- الروح لابن قيم الجوزية، مكتبة الرياض الحديثة. الرياض.

٦- فقه السنة المجلد الأول. السيد سابق – دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة السابعة سنة ١٤٠٥هـ.

٧- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية.

جمع عبد الرحمن محمد بن قاسم وابنه – مؤسسة قرطبة/ مصر.

٨- مختصر منهاج القاصدين.

للإمام أحمد بن محمد المقدسي – تحقيق زهـير الشـاويش – المكتب الإسلامي – بيروت – دمشق – الطبعـة الثامنـة سـنة ١٤٠٩هـ.

٩- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن.

محمد فؤاد عبد الباقي – دار مطابع الشعب – مصر.

١٠- الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب.

ابن قيم الجوزية – تحقيق الشيخ إسماعيل محمد الأنصـاري – نشر رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشـاد في المملكة العربية السعودية.

* * *

الفهرس